التجديد فى الأدب

للاستاذ احمد أمين

٤

الشعر

من قديم حاول الأدباء والنقاد أن يضعوا تعريفا للشعر فاختلفت تعاريفهم لاختلاف أنظارهم ، ولأن كلمة الشعر استعملت فى معان مختلفة ، فكان كل أديب يعرفه حسب نظره ، وحسب المعنى الذى يرمى اليه ، وكان سواء فى ذلك أدباء العرب والفرنج

ذلك أن الشعر - على العموم - يتكون من عنصرين اساسيين وهما الوزن والقافية أولا ، وإثارة المشاعر ثانيا ، فاذا فقد الكلام عنصرا من هذين العنصرين لم يصح أن يسمى شعرا ، غير أن بعض العلماء طغى عليه النظر الى عنصر الوزن فعرفه تعريفا أفقده روحه ، فقالوا أن «الشعر هو الكلام الموزون المقفى» ومثله قول بعض الفرنج «أى كلام موزون يسمى شعرا سواء أكان جيدا أم رديئا» وعلى هذا التعريف فالفية ابن مالك شعر ، وقواعد الحساب المنظومة شعر ، والمتون الفقهية المنظومة شعر - كما أن بعض العلماء طغى عليه النظر الى روح الشعر ومعناه فعرفوه تعريفا أفقده موسيقاه ، كالذى قال بعضهم «الشعر فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت فى هدوء» ومثله قول رسكن: «الشعر ابراز العواطف النبيلة من طريق الخيال» وهو تعريف يصح أن يكون للأدب كله نثره وشعره بل للفن جميعه من أدب ونحت وتصوير وموسيقى

وابن خلدون نقد التعريف بأنه الكلام الموزون المقفى وقال انه ان صح تعريفا عند العروضيين لا يصح عند البلاغيين ، ثم اختار أن يعرفه «بأنه الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والاوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله ، الجارى على أساليب مخصوصة» وعيب هذا التعريف أنه مل وأنه لم يلتفت الى مزية الشعر وروحه وهو أثارة المشاعر ، واستقلال كل جزء منه فى غرضه ومقصده ليس من العناصر الأساسية التى يصح أن تدخل فى التعريف

فلو قلنا ان الشعر هو الكلام الموزون المقفى المنبعث عن عاطفة والمثير لعاطفة كان تعريفا أقرب الى الصواب

فأذا وجدت نوعا من الأدب يجمع الوزن والاتصال بالمشاعر فسمه شعرا والا فلا

والشعر يثير المشاعر بما فيه من خصائص - فأولا - بأوزانه وقوافيه ، ولذلك كان المعنى الواحد اذا قيل مرة شعرا ومرة نثرا كان فى الشعر أقوى أثرا - وثانيا - بلغته ، فللشعر لغة غير لغة النثر ، ولسنا نعنى بلغة الشعر الكلمات الغريبة أو أنواع البديع أو نحو ذلك ، فقد يكون الشعر فى منتهى الرقى وكلماته فى منتهى السهولة ، وهو كذلك خلو من كل أنواع البديع ، أنما الذى نعينه أن للشاعر ملكة لا يمكن أن نوضحها تمام الوضوح ، بها يستطيع أن يتخير من ألفاظ اللغة مايرى أنها أبعث للمشاعر . وهو كذلك يضعها فى قوالب يتخيرها من القوالب العديدة والتراكيب اللغوية المختلفة ، وهذا هو ما يجعل الشاعر شاعرا فقد يكون عندنا شعور فياض كالشعور الذى عند الشاعر أو أغزر منه ولكن ليس لنا هذه القدرة على الافصاح واختيار الألفاظ والقوالب والتراكيب - ومن ثم كان من المستحيل ترجمة الشعر الى شعر ، لأن الترجمة لا ترينا ما للشاعر من قدرة فنية على أختيار الألفاظ والأساليب ، والذى نترجمه هو المعنى الذى حواه الشعر ومافيه من تصوير وخيال ، ويعد المترجم أمينا اذا هو أستطاع أن أن ينقل هذا ، أما طريقة الأداء فلا يمكن ترجمتها ، نعم ان بعض الشعراء قد يقرأ القطعة من الشعر ويكون له قدرة فنية فيصوغ هو شعرا مستمدا من وحى ماقرأ ، وقد يجرى مع الأول فى واد واحد وتكون له عذوبة ما للأول ، ولكن ليس هذا ترجمة على الاطلاق

كذلك يثير الشاعر الشعور بما عنده من لطف النظر أو الالهام أو اللقانة أو ماشئت فسمه ، فللشاعر روح غامض طبع عليه لا يكتسب بتعلم . به ينظر الى الأشياء نظراً خاصا ، وبه يبعث الشعور عند السامع . ولعل هذا هو الذى جعل شعراء العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً ينفث فيه الشعر . ولأمر ما خلط العرب فسموا النبى شاعراً أحياناً وكاهناً أحيانا (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون)

وللشاعر نظر باطن للحياة يغوص فيها ويستخرج معانيها ويعرضها فى شعره - ولأن الشعر هو معنى الحياة كان شعر كل عصر مرآة له . وقديماً قالوا : (الشعر ديوان العرب) والحق أنه ديوان الأمم تسجل فيه حياتها وأفكارها ومشاعرها . فالشاعر يعطينا صورة روحية حية أكثر مما يعطينا إياها التاريخ . والشعراء عادة فى مقدمة قومهم شعوراً ، وشعرهم إيذان بالفلسفة وإرهاص لها ، فهم يلهمون الشيء إلهاما غامضا ، ثم يتضح ما ألهموا به على مر الأزمان ، وتأتى الفلسفة بعد فتشرح وتحلل وتدلل .

* * *

أما الوزن فى الشعر فهو موسيقاه ، وله قيمة كبرى فى الشعر حتى عُدَّ أهم فارق بينه وبين النثر ، والشعر يحلو بالموسيقى الجيدة ، ويضعف شأنه اذا ساءت موسيقاه . وارتباط الشعر بالموسيقى أشد من ارتباط الفنون الأخرى كالنقش والتصوير ، حتى كان الرومان يقولون : « ان الشعراء ليسوا إلا مغنين يترنمون بشعرهم ، ويغنون به لأنفسهم ولمن شاء أن يردده بعدهم »

ومن أنواع الشبه بين الموسيقى والشعر ما لاحظه بعضهم من أن كلا منهما يتنوع أنواعا متماثلة . فالصوت يختلف عن الصوت من نواح أربعة : (١) من ناحية الطول والقصر (٢) والغلظة والرقة (٣) والارتفاع والانخفاض (٤) ومن ناحية مصدر الصوت كعود أو قانون .

وهذه النواحى الأربعة يمكن أن نراعيها فى الشعر ، فمن النوع الأول اختلاف التفاعيل طولا وقصراً ، فالرجز أقصر فى التفاعيل من الطويل وهكذا . ولهذا الاختلاف تأثير كبير فى الأذن الموسيقية .

كذلك نرى فى الشعر ما يتناسب مع الشدة والضعف ، والغلظة والرقة . فالشعر قد يناسبه — أحياناً — حروف وكلمات ضخمة قوية ، وقد يناسبه حروف وكلمات لينة رخوة ، كالذى قالوا فى قوله :

ألا أيها النوام ويحكمو هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب؟

فالشطر الاول قوى شديد والثانى رخو ناعم

وفى الشعر ما يناسبه الهدوء والدقة كشعر الغزل ، ومنه ما يناسبه الشدة والبطش ، ويناسبه أنشاده فى قوة وجلبة كشعر الحماسة

ونلاحظ فى الموسيقى أن النغمة الواحدة اذا وقعت على الكمنجة ثم وقعت بعينها على البيانة كانت النغمتان مختلفتين تأثيرا ، وهذا يقابله فى الشعر القافية ، فالقصيدة على قافية قد يكون لها أثر لا يكون إذا قيلت على قافية أخرى وهكذا

والشعر أقل تقدما وأبطأ خطى من النثر ، سواء فى ذلك اللغة العربية وغيرها من اللغات ، وسبب ذلك على ما يظهر أن الشعر لغة العواطف ، والنثر لغة العقل ، والمشاعر والعواطف قليلة التغير بطيئة الرقى ، وما حدث فيها من تغير فأكثره تغير فى الشكل لا فى الموضوع ، أما العقل فراق أبدا ، وثاب فى الرقى ومظهر ذلك الرقى العلمى الذى نحسه من سنة الى أخرى ، ولأن الشعر تعبير شخصى وأعنى بذلك أن الشاعر يعرض علينا فى شعره مشاعره ونظراته الى الحياة واحساسه بها ، أما الناثر فعالمى انسانى يعرض الشيء كما هو لا كما يرى ، تحس فى الشعر دائماً بالشاعر يحدثك عن نفسه ، وتحس فى النثر بعقل يخاطب عقلك ، وان شعرت بالناثر فمن وراء حجاب ، ومن أجل هذا خضع النثر للمنطق ولم يخضع له الشعر ، ترى فى الشعر غالبا مبالغة لا يرضاها المنطق ، وتناقضا لا يقره المنطق ، وتحكما فى الحكم لا يؤيده المنطق ، وتخبطا وهراء يغتفرهما العقل فى الشعر ولا يغتفرهما فى النثر - وهذه الظاهرة وهى سير النثر الى الامام فى سرعة وقفز ، وسير الشعر فى بطء وتمهل ، هى التى جعلتنا نتذوق الشعر العربى فى العصر العباسى وما بعده أكثر مما نتذوق النثر فى ذلك العصر ، لأن الصلة بين نثرنا والنثر القديم صلة ضعيفة قد خالفناها كل المخالفة ولم يبق منها الا أساس التركيب الذى تقتضيه طبيعة اللغة ، بل أن مسافة الخلف بين نثرنا والنثر من عشرين سنة بعيدة كل البعد ، وعلى العكس من ذلك الشعر ، فالفرق بين الشعر القديم والحديث قليل تافه ومع هذا - فالشعر يجب أن يخضع لسنة النشوء والارتقاء ، ويجب أن يتقدم ويجارى الزمان كما حدث فى الشعر الغربى

يجب ان يتقدم الشعر فى كل من عنصريه عنصر الوزن وعنصر المعنى ، ففى الوزن نرى ان العرب فى الجاهلية صبت شعرها فى ستة عشر بحرا ، وكان خضوعها لهذه البحور لا لأنها حصرت كل ما يمكن أن يكون ، ولكن ابتكروا أولا بحرا أو بحرين ثم جاء الخلف فزادوا هذه البحور شيئا فشيئا لا يهديهم فى الابتكار الا الأذن الموسيقية : وهم لا عيب عليهم فى ذلك

ولكن العيب عيب من أتى بعدهم فقد سوا هذه البحور ولم يشاءوا ان يخرجوا عنها قيد شعرة ، وقد تحكم العلماء والادباء فى اذواق الناس فابوا عليهم أن يقولوا فى غيرها أو ان يشذوا ولو قليلا عنها . وهو تقديس فى غير محله ، لأن أوزان الشعر كما قلناهى موسيقاه ، وكما تطورت الموسيقى فى العصور واخترعت نغمات وولد من القديم نغمات جديدة ، وكانت موسيقى العصر العباسى غير موسيقى العصر الاموى ، وهما غير موسيقى الجاهلية ، كان واجبا ان يغير الشعراء موسيقى الشعر ولا يقفوا عند الحد الذى رسمه الجاهليون ، وعجيب أن نسمح فى عصرنا للموسيقى الشرقية أن تطعم بالموسيقى الغربية ونهيء آلاتنا للتوقيع عليها بهذه النغمات الجديدة ، ونهيء آذاننا لسماعها ثم لا نفعل ذلك فى الشعر ! نعم أخذ بعض الناس يتحللون من قيود البحور والقوافى الجاهلية كما فعل الأندلسيون بالموشحات وما اليها ، ولكن وقف من بعدهم على اختراعهم ولم يسيروا على سننهم فى التقدم

يجب أن يتحرر نوابغ الشعراء من هذه القيود ويشعروا بما يحسون ، ويوقعوا على النغمة التى يرتضون ، وليس الحكم بيننا وبينهم هو البحور الستة عشر ، ولكن الحكم هو الأذن الموسيقية ، والأذن الموسيقية وحدها ، وكما نرجع فى كل فن الى الخبيرين نستفتيهم ونحتكم اليهم ، فكذلك فى هذا الضرب يجب أن نحتكم الى من رقت أذنهم الموسيقية وأذواقهم الفنية ، وليس فى هذا ضير ما على ثروتنا القديمة فى الشعر ، فأنا باخترا عنا بحورا وأوزانا نزيد فى ثروتنا الى ثروتهم كما نزيد فى موسيقانا الى موسيقاهم وفى علمنا الى علمهم .

أما من حيث الموضوع ومعانى الشعر فمجال القول فيه أوسع ، وتقصير الشعراء فيه أبين ، ولئن كانت كل أمة تعد الشعر ديوانها تسجل فيه نزعاتها وآمالها وحياتها ، فأنى أخشى أن يكون الشعر العربى سجلا ناقصا لم يدون فيه الا وقائع قليلة من نزعات كثيرة ، وصفحات ضئيلة من حياة حافلة مركبة معقدة . لقد دون الشعر كثيرا من وقائع المديح والرثاء والغزل والخمريات وما اليها وهذا حسن ، وهو ضرب من الشعر لا بد منه ، ولكن ليس هذا كل مشاعرنا ولا أكثرها - لقد مررت فى هذا العام على تلاميذ مدارس ثانوية خارجين من لعب الكرة فسمعت بعضهم يصيح « يامحنى ديل العصفورة ، ومدرستناهى المنصورة » فجرت من عينى دمعة على مانحن فيه من ضعة وانحطاط ، وقلت أين الشعراء يضعون الأناشيد تجارى نفسية الطلبة ، وترقى من مشاعرهم ، وتزيد فى روحهم حماسة وقوة ، وتميز الطبقة المتعلمة من طبقة العامة وأمثالهم ؟ وأنى كشافة العراق ينشدون الأناشيد المختلفة فى المناسبات المختلفة ، فلم يجد كشافة مصر مايجيبونهم به ويساجلونهم فيه الا هراء من الكلام وسخفا من الغناء ، ثم أين الشعراء يضعون أغانى للشعب وأغانى للمتعلمين تناسب حياتهم وموقفهم الاجتماعى ؟ نعم تنبه بعض الشعراء لهذا ووضعوا أغانى أرقى مما وضع من قبلهم ، ولكن أكثرها بكاء وحنين وذوبان ، وهى من الأدب الذى سميته أدبا مائعا ، والذى لا يصح لأمة ناهضة أن تقتصر عليه ، بل أين شعراء الشرق الذين تغنوا بما حوته طبيعة بلادهم من جمال وأبداع فرقوا ذوق شعوبهم وأشعروهم بجمال الطبيعة ، وغذوا عواطفهم وعودوهم تقدير الجمال والهيام به ؟ لقد قصر شعراء العرب قديما وحديثا فى هذا الباب ، فلا نعثر منه فى الأدب العربى الا على قليل ، وهذا القليل لا يكفينا الآن ولا يسد رغباتنا ، لان شعر الطبيعة قد رقى عند الأمم وأصبح مؤسسا على شيئين لابد منهما ، وهما علم بالطبيعة ومعرفة بقوانينها ، وحب للطبيعة وهيام بها ، ثم صياغة ذلك كله فى قول ساحر جذاب .

وهذا الضرب من الشعر قطع فيه المحدثون من الغربيين شوطا بعيدا وسبقوا فيه من قبلهم بمراحل طويلة - وبعد هذا كله - أين الشعر الاجتماعى العربى الذى يساير نزعات أمم الشرق ومطامعها وآمالها فى الحياة ؟ أن أمم الشرق تنزع الى الحرية وتأمل أن تتبوأ فى العالم الأنسانى المكان اللائق بها ، وتنشد ضروبا من الأصلاح الاجتماعى ترى الحاجة ماسة اليه ، وكلها مجال فسيح للشعر يلهب حماستها ويقوى إيمانها ويهديها سبل الحياة . فأين الشعراء الذين وقفوا هذه المواقف وقادوها قيادة صالحة ؟

ان عواطف الأمم الشرقية ساغبة تنتظر من يغذيها ولا تجده .

الحق أن أدباء النثر قد أدوا رسالتهم خيرا مما أداها أدباء الشعر ، وفى كل من الفريقين تقصير ؟